

## الفكاهة في شعر محمد الأسمر

الشاعر محمد الأسمر ( ١٩٠٠ - ١٩٥٦ م ) واحد من الشعراء الكبار الأفذاذ الذين ظلمتهم شهرة غيرهم فقد كان هو وأقرانه محمود غنيم وعلي الجندي والعضد الوكيل ومحمد عبد الغني حسن وطاهر أبوفاشا ومحمد مصطفى حمام و عبد الحميد الديب ومحمد مصطفى الماحي من الجيل الذي أبدع أيما إبداع ولكن الساحة في الثلث الأول من هذا القرن لم تتسع إلا للشوقي وحافظ ومطران ، وفي الثلث الثاني من هذا القرن هاجت البشرية وماجت في حرب عالمية وتقلبات سياسية أثرت في الذوق العام والثقافة العامة فتدهورت مكانة الأدب والفن لحساب السياسة ، والتيارات الفكرية الجديدة .

وكان ما يجمع بين هؤلاء الشعراء الذين ذكرنا أسماءهم هو حبهم جميعاً للمرح والدعابة وارتباط بعضهم ببعض في صداقات خالدة بقيت ظلالتها واضحة في آثارهم الشعرية ، والشاعر الأسمر ولد في دمياط في ٦ نوفمبر ١٩٠٠م وتعلم بمدارسها ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم في مدرسة القضاء الشرعي ثم في الأزهر، وعين بعد تخرجه موظفاً في مكتبة الأزهر حتى أصبح أميناً عاماً لها. وله عدة كتب ضمت مقالاته الاجتماعية وديوانان شعريان كبيران احتويا على أشعاره .

ولم يكن الشاعر الأسمر أسمر اللون ولكنه لقب بهذه التسمية لأسباب عائلية ، إذ يبدو أن هذا هو لقب عائلته . أما هو فقد كان وسيماً أبيض اللون وكان حريصاً على ارتداء الزي الأزهري حتى آخر لحظة في حياته .

ومن أشهر فكاهات الشاعر محمد الأسمر ما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان ( ثلاثة جنيهاً دعابة شعرية ) وقصتها أن الشاعر محمد الأسمر أودع عند صديقه اليوزباشي " النقيب " عبد الحميد فهمي مرسياً مبلغاً قدره ثلاثة جنيهاً بصفة الأمانة واحتفظ بها الرجل في مكتبه وكان يعمل إذ ذاك أركان حرب وزارة الدفاع المصرية . واستبد القلق بشاعرنا محمد الأسمر وكتب إلى صديقه يحثه على بذل الجهد في المحافظة على جنيهاً الثلاثة فيقول :

( أعبء الحميد ) وأنت امرؤ	عرفتك من عنصر طيب
لنا عندكم مهجة أودعت	لشهر الصيام على الأغلب
ولو أستطيع لأودعتها	إلى رمضان على كوكب
فلا تغف عينك عن حفظها	ولا تنأ عنها ولا تلعب

وينبه شاعرنا صديقه إلى أنه يخشى على نقوده الغالية من أن تمتد إليها يد اللصوص المغامرين الذين يتفننون ويتحايلون ويبتكرون طرقاً مختلفة في سرقاتهم ولولا ثقة شاعرنا بما يتكدر في مكتب صديقه الضابط أركان حرب وزارة الدفاع من أسلحة لما استطاع أن يترك له مهمة حفظ جنيهاً الثلاثة :

فإني أخاف عليها النسيم	وأخشى امتداد يد الأجنبي
ولولا السيوف ولولا الحراب	لديك لما ساغ لي مشربي
معلقة ترهب السارقين	وتبعث بالمنظر المرعب
ومهما يكن فحذار اللصوص	حذار حذار ولا تغضب

فإن لهم حيلةً كلما تذكرتها دارت الأرض بي  
وبعد هذه الصورة الطريفة التي صور فيها الشاعر نفسه حائراً خائفاً تدور به  
الأرض كلما تفكر في الحيل التي يمكن أن يلجأ إليها اللصوص ، نجده يلح على  
صديقه في حفظ وديعته وأن يجعل الشك رائده مع كل ضيوفه :

وراقب ضيوفك يا صاحبي	وحتى ذوي النسب الأقرب
وراقب يدك ولا تعتب	وراقب يدي ولا تعجب
وحاذر من "السيد المرغني"	وإن كان فخر بني يعرب
أبيت وجسمي في منزلي	وروحي وعقلي في المكتب
ووالله لا الحرص من شيمتي	ولا جمعي المال من مذهبي
ولكنه مرض طارئ	يزول وعدوى الغنى المتعب
ثلاث من الورق العبقري	لديكم ، وكيلي عليها النبي
إذا علمت أنني رهبا	بحثن ولا شك عن مهرب

وقد علق على هذه القصيدة الشاعران الأستاذ ( عبد الحميد فهمي مرسي )

والأستاذ ( علي الجندي ) فمما قال الأستاذ عبد الحميد :

تروح وتغدو إلى مكتبي	كأنك تسعى لقبر النبي
تحج إليها لكي تطمئن	على ما لجيتك من مأرب
ولست أخاف عليها سواك	إذا ما تسللت كالأرنب
فلا تجزعن ، ولا تهلعن	ونم مطمئناً ، ولا تتعب

ومما قاله الأستاذ علي الجندي :

ت نفس عن تعب المتعب	ثلاثٌ من ( البنكنوت ) النفيس
ذخائر في عامنا الأجدب ؟	أفي الحق أن يقتني شاعر
يحل محل ( أبي الطيب ) ؟	ألم يكفه أنه بيننا
وما ذلك الطمع الأشبعي	فيا أسمر العين ماذا دهاك
وتمزح والجوع قد جدي	أتسمن والضرب قد شفني
وثوبي بال على منكبي	وتختال في ثوبك الأزهري
يفديك بالنفس والمنصب	أعني فإني أخوك الذي

ومن المعارك الفكاهية الكثيرة التي كان الأسمر يشعلها معركة خروف العيد وقصتها أن شاعرنا الأسمر كان قد طلب من صديقه القائمقام ( العقيد ) الشاعر عبد الحميد فهمي مرسى أن يعيره خروفاً في عيد من أعياد الأضحى التي جاءت خلال الحرب العالمية الثانية مع اشتداد الغلاء وارتفاع الأسعار، فبعث الأسمر إلى صديقه يقول :

هبز الخدين جبال ود خدينه	عبد الحميد وأنت معوان إذا
فابعث به لنرى ضياء جبينه	إن كان ذو القرنين عندك حاضراً
في بيت جاري - مأمآت قرينه	ولكي يجاوب - لو يماماً مثله
إن جاء عيد لم أضق بشؤونه	وليعلم الجيران أجمع أنني
بدراهمي ، فأنال حسن ظنونه	ولكي يراه من أساء ظنونه

وليطمئن الدائنون ويعلموا      أي امرؤ يقضي - جميع ديونه  
ويؤكد شاعرنا لصديقه أنه لن يمس هذا الخروف المستعار بسوء ، بل  
سيسهر على تأمين سلامته من الذبح أو العدوان ، فكل ما يبغى هو أن يتباهى به  
كما قال سابقاً - أمام جيرانه، ودائنيه وأولئك الذين يسيئون الظن بقدراته المالية  
وأنا الأمين عليه وهو بمنزلي      من كل جزار ، ومن سكينه  
يمسي- ويصبح وهو عندي آمن      من (فلفل) الطاهي ومن (كمونه)  
فابعث به (عبد الحميد) فإنه      شيء يرد إليكم في حينه  
لسنا نميل إلى نعاجك بل إلى      كبش لك التفويض في تعيينه !!

ثم حدث بعد ذلك أن اتصل القائمقام عبد الحميد فهمي بقريبه الأديب  
الكبير الأستاذ عبد العزيز سلطان وكان بينه وبين الشاعر الأسمر صداقة ومودة  
فبعث بأربعة خراف ، وأرسلها من محافظة المنيا بالصعيد إلى قريبه القائم قام  
عبد الحميد فهمي بحيث يعطى خروف لكل من الأسمر وعبد الحميد، ويعطى  
خروف لكل من الشاعرين علي الجندي ومحمد عبد الغني حسن وكانا قد طلباهما  
ووصلت هذه الخراف من المنيا متعبة قد نال منها طول الطريق وهدها السفر فظهر  
عليها الإعياء ولم تعد صالحة للتضحية بها فكتب الأسمر يسخر منها ويقول :

ويح عبد العزيز أرسل هرا      تِ إلينا ، وقال عنها خراف  
لم تماماً بل نونوت فضحكنا      ثم قلنا ما ذلك الإسراف  
أهدايا ، أم تلك بعض الرزايا؟      رب سلم ونج مما نخاف

أربع أقبلت . فقلت خراف ما تراه العيون ، أم أطياف ؟  
 ثم يذكر مصيبتة في الحروف الذي حُصص له ، فهو خروف ضئيل تكاد  
 العين لا تراه من فرط ضعفه فبينه وبين ما يعرفه الناس عن خراف الأرياف فارق  
 كبير :

كان منها لنا خروف عجيب	هو من فرط ضعفه شفاف
لاح كالوهم بل هو الوهم يمشي-	لا خروف جاءت به الأرياف
هو بين الكباش كبش صناعي	وزيف أدقه الزيف
أثري من عهد يوسف موميا	خلفته لنا السنون العجاف
ليس فيه من الخراف التي نعرف	إلا القرون والأظلاف
كم تمنى أطفالنا أن يروه	ورأوه ، فأنكروه وخافوا
أبصرته القدور عندي فمالت	ضاحكاتٍ وفرت الأضياف
خذه عبد الحميد خذه ، وحسبي	هبه حكماً أماله استئناف ؟

أما الأستاذ محمد عبد الغني حسن الذي كان معروفاً بمجاملاته وخلقه  
 الرفيع فلم يشأ أن يذهب مذهب الأسمر في السخرية ، بل مدح خروفه قائلاً :

وصل الخروف وقد حسبتك مازحاً	فإذاك قد بالغت في تسمينه
الله زينته بكل جميلة	وجمیل صنعك زاد في تزيينه

ومما أبدع فيه الأستاذ محمد الأسمر تلك القصيدة التي جعل عنوانها ( قريبا مربط  
 النعامة مني ) وهو شطر بيت شهير قاله المهلهل بن ربيعة أثناء حرب البسوس

الشهيرة وكرره في قصيدته ، وقصة هذه القصيدة أن السيد الشريف مرغني الإدريسي شيخ السادة الأدارسة بالمغرب العربي - وهو سوداني الجنسية شريف النسب كان قد بعث إلى الشاعر الأسمر هدية من الديوك الرومية ، والتمر ، وقصب السكر وحث كبير ، وأرسل هذه الهدية عن طريق صديقهما المشترك الشاعر القائم قام عبد الحميد فهمي مرسي ، فاستأثر عبد الحميد بالحث وأرسل الباقي إلى الأسمر وبعد أيام مرض السيد المرغني وكان الأسمر قد عرف بقصة استيلاء عبد الحميد على الحوت فكتب إلى السيد المرغني يواسيه ويذكر ما صنعه عبد الحميد فيقول :

يا سليل النبي عوفيت مما	بت تشكوه من أذاه الليالي
قال أشكو الأملاح قلت عجيب	كيف يشكو الأملاح حلو الخصال
الصديق الكريم ، والعسل الصافي	شهي الوداد ، عذب الخلال
والذي أرسل الديوك فقلنا	أديوك أم تلك بعض الجمال
والذي أرسل العجيب من التمر	نواه يباع بالثقال
ولطيف الأعواد من قصب هش	رماح وافت بخمر حلال

وهكذا يذكر الأسمر هدايا صاحبه المتعددة فتجيش نفسه بذكري تلك الخراف الضعيفة التي أهداها لهم صديقهم عبد العزيز سلطان وكانت غاية في الضعف ، والهزال فكأنها النمال ، ثم يذكر لصديقه المرغني كيف استولى صديقهما عبد الحميد فهمي على الحوت :

لا كعبد العزيز وهو صديق      حين أهدى الخراف مثل النبال

أو كعبد الحميد حين أتى الحو  
سَفَّهُ سَفَةً فجاء عليه  
هل رأيتم ، أو هل سمعتم بمزح  
ليت شعري إن كان ذلك مزحاً  
(قرباً مربوط النعمة مني)  
(قرباً مربوط النعمة مني)  
ت إلينا فسفه لم ييال  
وهو فوق العشرين في الأبطال  
مثل هذا في سابق الأجيال  
من صديق فكيف جدُّ القتال؟  
إن خطف الصديق للحوث غال  
سَفَّ عبد الحميد رزق العيال

وحدث أن كان الأديب الدكتور سيد نوفل - الذي أصبح فيما بعد أميناً عاماً مساعداً بجامعة الدول العربية - يعمل سكرتيراً للدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف ، فطلب الشاعر محمد الأسمر منه أن يتوسط لدى الوزير لكي يعاون تلميذاً فقيراً في الحصول على منحة ليتعلم مجاناً - وكانت المجانية آنذاك بالاستثناء - ويبدو أن السيد نوفل قد تباطأ في تلبية رغبة الشاعر الأسمر ، فبعث إليه موبخاً وهو يستخدم بعض الألفاظ العامية للدعابة على عادة القدماء فقال :

يا سيد يا جعراً  
إن كان ذلك حقاً  
يا نوفلاني قل لي  
خلف الوعود حلال  
يا دلدلاً قد تدلى  
تهتز في غي شيء  
هل أنت حقاً سكرُّو؟  
فاصنع صنيعاً يسرُّو  
وأنت شيخ شخُّر  
في الشرع أم هو نكر؟  
علام لا تسقتر؟  
كأنما أنت زر

فلسـت تنفـع يـوماً  
محـرنجـم مزبئـر  
لـولا الـوزير ولـولا  
سـمعت زأـر قـواف  
فمـل إلـى الصـدق وافـعل  
ولسـت يـوماً نـضر  
مـهـلـضـم لـيس غـير  
أني بـصـحـبي بـر  
تـيـت مـنـهـا تـر  
خـيراً فـذـلك خـير

وهكذا لا تنتهي دعابات الشاعر محمد الأسمر التي تفيض بها دواوينه، والتي تنم عن شخصية مرحة تتعاطى الفكاهة والدعابة طبعاً لا تكلفاً فتأتي معانيه مليئة بالروح الجذابة والظل الخفيف، في إطار من ألفاظ عربية رصينة غير مبتذلة، وهو في الوقت نفسه يبتعد عن الإسفاف والتدني اللذين كثيراً ما ينزلق إليهما من يتفاكهون تكلفاً وطباعهم تأبى عليهم أن يكونوا خفاف الظل.